في الانتاليد

نابوليون – تورين – فوش

للاب توتل اليسوعي

الانتاليد (invalide) في عرف الافرنسيين « العاجز او القاصر » . وقد خصّه بالبناية الكبرى التي شادوها في باريس ، على ايام الملك لويس الرابع عشر (١٦٧٠) ، مقاماً للجنود المتقدّمين بالسن ، او غير القادرين على كسب معيشتهم ، لما اصابهم من الجروحات وهم يجاهدون في سبيل الوطن .

تشمل دائرة الانتاليد متحف المدفعية ، ومتحف الجيش ، ومقام حاكم باريس العسكري ، منذ ١٨٩٨ ، وهو في يومنا الجنرال غورو .

وفي الانتاليد كنيسة عليها قبة فخمة ، وعلى جدرانها نصب الافرنسيون الاعلام التي غنموها من اعدائهم في الحروب ، فهي كالشاهد العيان الناطق ببسالة الجدود ، وقوة مراسهم ، وشجاعتهم ؛ وهي كذخيرة ومجموع امجادهم . وفي العام ١٨٤٠ وضعوا في الانتاليد رماد نابوليون . فاطلق على البناية مجازاً اسم ضريح الامبراطور «Le tombeau de l'Empereur» وهو تحت القبة في متسطح من الارض ، مدوّر ، يشرف عليه الزوّار من اعالي رواق محدق به . وبالقرب من رماد نابوليون اقاموا اضرحة لغيره من رجالات فرنسة العظام : هناك قبر للقائد تورين ، وهناك وضعوا فوش .

نابوليون ، تورين ، فوش !

ناموا نومهم الاخير جنباً لجنب ، تحت اجنحة الصليب وفي ظل الاعلام السجينة . فرّقت الحياة بينهم في شتى الازمنة والامكنة ؛ فضمّتهم المنية

اليها في حمى تربة واحدة. نثرت المجلات على ارملهم زهور الاعجاب والكرامة والخشوع ، فـلا اقلّ من ان نتناول زهرات من زهور الخلود تلك ونحتفظها في طيّات «المشرق» عبير عظمة ، وذكرى بطولة.

وصيّة نابوليون

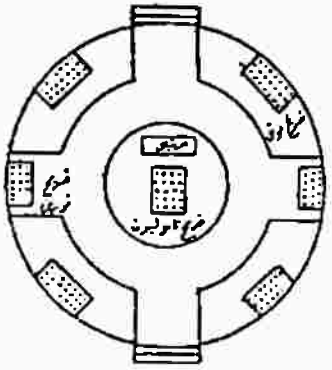

رسم مبدئي للاثاليد

يعلم الجميع مقـاومة نابوليون للمبادي الكاثوليكية في ما يخص وحدة الزواج وعدم انحلال عقده. ذلك ما ادى به الى الالحاح على الاب الاقدس ، في طلبه منه بالوعد تارة وبالوعيد اخرى ، لعلّه ينـال ، بالخداع او بالقوة ، فسخ زواجـه الشرعي من الامبراطورة جوزفين ؛ وبركة الاكليل ثانية على ماري لويـزا ، الاميرة النـساوية ، ابنة فرنـسوا الثاني امبراطور المانية. فامتنع البابا وقاسى الاضطهاد . على ان بونابرت كان مسيحياً كاثوليكياً بالرغم من جماحاته ، ايام عزّه . فهو الذي اعاد النظام الديني الى فرنسة بعد ان ذهبت به الثورة الافرنسية . ولمـا زالت دولة نابوليون ، ونفي ، وتضاءل نور حياته كتب وصيته واودعها بنداً شاهداً على صدق ايمانه ، قال:[1]

«انه يعلن بانه يموت في الديانة الكاثوليكية التي وُلد فيها . وانه يرغب الى الكاهن فينيالي ان يناوله القربان المقدس قبـل موته ويمسحه ويزوّده سائر ما يزوّد به المؤمنون في مثل تلك الظروف.»

تورين يعشق الكشكة

من تأليف للجنرال فيان

امّا تورين (١٦١١ — ١٦٧٥) ، القائد المظفّر ، الذي ضفر بيديه اكليل النصر على رأس ملكه لويس الرابع عشر ، وقتل في ساحة الوغى ، فكان بروتستنتياً مولداً ومنشأً ، ثم اعتنق الديانة الكاثوليكية . كيف حدثت تلك

١) راجع مجلة العالمين ، ١٥ كانون الاول ١٩٢٨ ، ص ٨٥١

الثورة الفكرية في حياته ؟ هل كان الداعي لنبذه معتقد لوتر وكلفين طموحه الى الوظائف العليا التي وعده بها لويس الرابع عشر ، اذا اذعن لاوامر ملكه واعتنق مذهب الاكثرية الساحقة في فرنسة ؟ او هل انضم الى الكثلكة ، نقمةً منه على حزب « الهوجنو » لعدم تقديرهم شخصيته حق قدرها ؟ ما هي الدواعي الباطنية التي حركت قلب رجل شديد المراس غير هياب سطوة الالوف من الجنود ؟ كيف اهتدى تورين الى الايمان الكاثوليكي ، اكان ذلك لغاية بشرية ، او طمعاً بخلاص نفسه فقط ؟ .

ذلك المبحث جال فيه العسكري المتدين ، والقائد الكبير ، صديق سورية ولبنان ، ومندوب حكومة فرنسة السامي فيها سابقاً ، الجنرال ڤيفان. فوضع مؤلفاً في حياة تورين ، ونشر على اهتداء تورين في مجلة العالمين (١٥ شباط الأخير) مقالاً درس فيه القضية من جميع وجوهها . فبيّن ان نفس تورين كانت منتعشة بالحياة الدينية البروتستنتية ، لكنها لم تطمئن الى ايمانها لما بين البروتستانت من التذبذب في تحديد قواعد الايمان وشرحها . ولم يكن في قلب تورين بغض فطري الكثلكة ، رغم تعصب والدته عليها وقد روي عنها « لأن ارى ابني تحت شفرة المقصلة احبّ الي من ان اراه كاثوليكياً . » فان اباه ولد وتعمد في الكنيسة الكاثوليكية . وكانت نية تورين مستقيمة في طلبه وجه الله وخلاص نفسه ، وظل مدةً يعيش طبقاً للمبدأ الذي اعلنه لاحد اصدقائه : « لو صح لي ان كل الديانات سيان لاخترت الكثلكة دون غيرها ، اذ هي الآمن مسلكاً الى الخلاص » . ولكنه كان مرتاباً بصحتها ، فلم يعتنقها

فصار يسعى ويبحث ويلتمس النور لعقله والراحة لقلبه ، فلا يألو جهداً في مذاكرة رجال الدين وسائر من يمكنهم تنويره في التعليم المسيحي . وحدثت اعجوبة سببت انقلاباً عظيماً في نفس تورين : نشبت النيران في اللوفر ، واخذت تنتشر ، الى ان تقدم كاهن حاملاً القربان المقدس فاوقف سيرها . ففطن تورين من ثمّ الى تعليم الكنيسة الكاثوليكية في وجود المسيح الحقيقي في الافخارستيا .

اما الذين مهّدوا له الطريق الى ايجاد النور فمنهم نيقول من پرد روّيال ، وبوسويه الخطيب الشهير . ولبلّ بوسويه وضع مؤلفه « شرح الايمان الكاثوليكي »

لتورين خصيصاً. وكانت عقيدة الايمان في حضور المسيح الحقيقي في الافخارستيا، وضرورة وجود سلطة واحدة لا مرد لحكمها في بيعة الله، هي الحجة التي ظفرت من نفس ذلك القائد الباسل. وسمع عن احد البروتستانت انه قبض عليه اسيراً في اسية الصغرى ووقع تحت نير الاتراك ثم اختلط بمسيحي الشرق، ورأى ايمانهم في الافخارستيا، وعاد من بعد الى فرنسة، فخبر ذويه بما اختبره بنفسه عن اعتقاد الشعوب العريقة القدم في الدين المسيحي. فنبذ تورين الديانة البروتستانية واعتنق الكثلكة سنة ١٦٦٨. قال الجنرال ڤيفان:

« فلا حرج اذن علينا في البحث عن دواعي اهتداء تورين الى الايمان الروماني. اننا لن نعثر في درسنا على فكر او فعل يضطرنا الى الحطّ من كرامة الرجل. تشرّب تورين الحياة الدينية منذ نعومة اظفاره فلم تفارقه، ولا في معسكراته، امام العدو، بل كان دوماً يعالج مشاكلها. ولما خامره الشك بصحة الديانة البروتستانية اخذ بالتفتيش عن الحقيقة. ولم يألُ جهداً حتى اكتشفها فاعتنقها. واعتنقها لا عن غرض عالمي ولكن حباً وشغفاً بها، لانها الحقيقة.»

فوش

«لا بدّ للشبيبة من ان تعدّ قواها!»

سابق فرديناند فوش في هذا الموضوع، وهو فتى، ليحظى بدخول المعهد الحربي « پوليتكنيك » سنة ١٨٧٠. وفي اليوم التالي بلغه خبر انكسار الافرنسيين واندحارهم امام الالمان، فعقد النية على ان يكون جندياً وقيد اسمه في الفيلق الرابع من المشاة؛ لكن المدنية فاجأته وحالت دون خوضه نيران القتال. ودخل پوليتكنيك سنة ١٨٧١. ومعهد الممارسة (Ecole d'application) سنة ١٨٧٣ في فونتنبلو، واتقن الفروسية في تارب، ولازم الدروس في سومور، وفي المدرسة الحربية الكبرى سنة ١٨٨٥، حتى نال شهاداته. ثم عاون على التدريس في التاريخ، وفي الفنون العسكرية، الى ان قُلّد رسمياً وظيفة معلم في المدرسة الحربية الكبرى سنة ١٨٨٦، فالّف كتابين شهيرين اودعهما خلاصة معارفه. كتاب القيادة في الحرب (La conduite

de la guerre) وكتاب اصول الحرب (Les principes de la guerre). ثم دبت عقارب الماسونية في مصاف الجيش ، فنحي عن وظيفته سنة ١٩٠١ ، الى ان عهد اليه كليمنصو سنة ١٩٠٧ ، بادارة مدرسة الحرب الكبرى.

ثم تولى فوش قيادة فرقة الجيش الثالثة عشرة سنة ١٩١١ ، ثم الفيلق الخامس سنة ١٩١٢ ، والفيلق العشرين سنة ١٩١٣ . ومن ثمّ نشبت الحرب فخاضها فوش وقد استعدّ عليها بخمسين عاماً قضاها درساً واجتهاداً.

وحطّت الحرب اوزارها ، وخرج فوش منها ظافراً . فلم ينسَ ان ينسب النصر اولًا الى رب الجنود ، ولم يخامره قط حياء بشري في اظهار ايمانه واتكاله على الله.

وقد اضافه الانكليز في لوندرة فكانوا يجدون على منضدة في غرفته كتاب المسيحي ، والاناجيل ، وكتاب القداس ، وكتاب الاقتداء بالمسيح. وكان ايام الحرب يقضي في الكنائس ساعات طوالًا. فبلغ الخبر كليمنصو ، فقال: «ما لكم وله ؟ دعوه وشأنه فانه لم يحصد من صلاته الا النجاح.»

وكان فوش يقول: «لسنا الا الآلة العمياء في يد العناية الالهية ! »

ولما احتضر تقدم اليه الاب لاند معزيًا ومشجعاً قبل ان يمسحه بالزيت المقدس ، وذكّره بركب الابرار من عساكره الذين سبقوه . فاشار فوش بيده الى فوق وقال: «السماء ! »[1]

الجائزة (٢٦ آذار ١٩٢٩)

اودعوه النعش ، وحملوه على مدفع ، وغطّوه بالعلم المثلث الالوان ، ووضعوا على العلم القبعة المطرّزة باوراق الذهب ، ووشاح القائد ، وسيفه . وساروا الوفاً مؤلفة ، وفي مقدمتهم رئيس جمهورية فرنسة ، والبرنس ارف ولس ، وسفراء الدول المتحالفة ، ومندوبو المتحاربين القدماء ! ساروا متأثرين ساكتين بين الجماهير الخاشعة ! شيّعوا الى مقامه الاخير من كانت له الايادي البيضاء على بلاده باجلاء العدو عن اراضيها ؛ وعلى المتحالفين بقيادتهم الى النصر ، وعلى العالم بتحريره من نير العبودية.

١) عن مقالة في مجلة الابحاث ، للاب دونكور (Etudes, 5 Avril 1929)

لقد اطرأوا فوش ، وأشادوا بذكر عقله الكبير وعزمه الصارم ، ودعته وسذاجته الآخذة بمجامع القلوب ، ولا سبيل الى التوسع في الموضوع.

ولكن حسبنا اليوم ان نقول انه لم يرضَ لنفسه باكليل نصر دام ، فاوقف رحى الحرب ، وقد اخذت دائرتها تدور على اعدائه وتطحنهم طحناً . والمتعطشون الى الانتقام ممن حوله يقرونه بالاجهاز على عدوّ اذاقهم الامرّين بالامس ، ووقع في قبضتهم اليوم . فلم يسمع فوش لنصائح الناقمين ، وفضّل النصر بعقد الهدنة وحقن الدماء ، على النصر بالارهاق والتشفّي ، فنال اعجاب اعدائه ، وحاز لقب « مرشال السلام » ! —

الجنرال الاعمى [1]

وقف في الانثاليد متأبطاً ذراع امرأته جوليت ، وصار يسألها ان تصف له مناظر الجنازة ، وكنت انا بالقرب منهما اسمع لحديثهما.

قال الاعمى : جوليت لا تتركيني . ماذا ترين ؟

جوليت : لا شيء ؛ المناصب للرجال فاضية . . . اليك ! اليك ! هوذا الجنرال غورو.

واشار الجندي الضرير بحضوري ، فقال :

سيدي صف لي المشاهد ! ان امرأتي لا تحسن الوصف.

قلت : الانثاليد في نور الشهب ؛ الضباط حول المدافع يتألبون ببزّاتهم الرسمية ؛ مساحة لسير الجنود ، وفي وسطها منبر للخطابة . هناك يقف بوانكاره للتأبين . القناديل منوّرة ، والسواد يغطيها حداداً.

ثم سمعنا صوتاً هائلاً . فليس هو بصوت البشر ، انما هو صوت الرعد القاصف ، صوت المدافع ، ثار من خلال الاغصان ، وتساقط من السحاب ، ومضى على وجهه في الهواء هائماً.

الاعمى : لقد وصلوا ! اني اسمع الابواق تشقّ اديم السماء.

ومرّ امامنا رجال الشحنة ، ونادوا : يا للموكب !

الاعمى : سيدي ، قل ماذا ترى ؟

قلت : سيارتين ، ورجال الشحنة على دراجات . التفّوا حول المنبر ، وفسحوا المجال حوله . هوذا الجنود قد اقبلوا

---

١) عن مجلة اوربة الجديدة ، ٣٠ اذار ١٩٢٩

الاعمى : الافرنسيون ؟

قلت : نعم الافرنسيون ! وقد بدت ثيابهم بلونها الازرق السماوي ، وخوذاتهم ، وطبولهم الموشحة بالسواد ، اتسمعهم ؟

الاعمى : نعم ! دقتهم دقة الحزن ، ولكن ما اجملها ! وماذا بعد ؟

قلت : العلم المطوق بشارات الحداد ، ضرب له رجال الشحنة السلام ، وكشفت امامه الرؤوس ... اليك المشاة ، واليك الرماة البحارون .

وسمعنا ابواق الجيش ، وابواق الصيد ، وصوت العسكر الجرار المسرع بالسير . فاشرق وجه الضرير فرحاً وقال :

هؤلاء لست بحاجة الى السؤال عنهم . فانهم القناصة واني لاعرفهم من وقع خطواتهم وتقاطيع سيرهم ... اني كنت منهم سابقاً . ولكن ما هذا ! يا له من سير بطيء ، هؤلاء ليسوا بافرنسيين !

قلت : الحق معك ، بل هو الحرس الانكليزي .

الاعمى : وكيف تراهم ؟

قلت : اراهم معممين بالقبعات ذات الشعر الطويل الاسود ، مرتدين الثياب الحمر ، متأبطين بندقياتهم ، مصوبين شفراتها الى الحضيض ، ماشين الهوينا وركبهم تتحرك كأنها قطعت من جسم واحد .

واليك البلجكيين لابسي الكاكي العسكري كعسكر مستعمراتنا ، والايطاليين ببزاتهم الخضراء الشهباء ، وقبعاتهم المراشة ، والسربيين ...

الاعمى : سمعت صوت جر المدافع ، هل هو المارشال ؟

قلت : هو هو . جالوا به حول المنبر واوقفوه امام شبكة الباب الحديدية ، وقد اغلقت .

الاعمى : ثم ماذا ؟

قلت النعش .. وهناك وسادات شكوا عليها نياشين المارشال بجملتها .

الاعمى : اني لاسمع صوت محرك الطيارات . اتراها ؟

قلت : لا اكاد اراها وقد حجبها الغيم عن نظري

وصارت امرأة الجندي تستطيل الوقوف ، فتنحى بها زوجها الضرير الى مقام تلتمس لها فيه راحة ، فانقطعت الصلة بيني وبينها .